زوّديني مِن جرارك

ناجي علوش

إلى ابراهيم علوش الأصغر .

إبراهيم سالم علوش ، ولد سنة ١٩٠٦ في بير زيت ، من قضاء رام الله بفلسطين . فقد أمه صغيراً ، تزوج أبوه . ثم ما لبث أن فقد أخاه الوحيد . وفقد خلال الحرب العالمية الأولى والده ومعظم أقاربه ، ما عدا عمه المهاجر ، وابن خاله الضائع الذي عاد فيما بعد ، وابنة خال آخر ، وخالته وزوج عمّه .

عاش مخزوناً بالهم والحزن والشعور بالقهر . ولقد ولد فقيراً ، ومات فقيراً . دخل المدرسة ثلاثة أشهر في حياته ، ولكنه كان يقرأ جيّداً ، ويحفظ الكثير من الشعر والزجل والتاريخ . كان راوية القرية ، وحافظ تواريخها ، وعارف حدود أراضيها ، وسجل أزجالها . وكان يعمل في تقليم الأشجار وتطعيمها وزراعتها ، وبناء السناسل (الجدران) والسقائف .

لم يغادر القرية إلاّ في فترات محدودة جداً . توفي يوم ٢٣ / ٥ / ٨١ في بيروت ، عن حوالى خمسة وسبعين عام . وكان لقبه أبو ناجي ، وناجي اسم أخي الأكبر الذي توفيَ صغيراً ، فأخذت اسمه .

المراثي الأولى

- ١ -

تطيَّر أمْس
كَانَتْ روُحه تَسْهرْ
وكانت عينُه « تكبي »[1]
وفكّرَ كَيْفَ يَلْقاني
فراحَ يُقلِّب الدَفْتَرْ
وأطلقَ ذِهْنَه المَلدودَ
في آثارِ عِنواني
وفَكّرَ . . .
ها هنا « بير زيتُ »[2]
والميلادُ مكتوبٌ على الاحجارِ
والأشْجارِ حولَ الدارِ
لكنّ الفتى المفتونَ مَدْعُوٌّ
إلى الاسفارِ
مُنْذُ نعومةِ الأظفارِ
والاسرارُ
تَدْعُوهُ
فيركضُ في زوابِعها
وتشقيهِ
فَيسرحُ في مرابِعها . . .
. . . . . .

هُنا الميلادُ
لكنَّ الفتى المفتونَ
بالاسرارِ والأخطارِ
همّ سُرىً
وَمَرَّ العامُ إثْرَ العامِ
لم يَظْهرْ
. . .
هنا عمّانْ
لا أخبارَ من أيلولَ أو
تشرينَ في السَّبْعينَ
فالفرسانُ حطّوا في عماشِرِها
ولَمْ يَدَعوا الشواهدَ في مقابِرِها
فمن يتذَكرُ العنوانَ
يا عمّانُ . . .
من يتذكر العنوانَ
والفرسانُ يزدحمونَ
والخيل الغريبةُ لا تكفُّ
عن الخوارِ ، ودولة السلطانِ
تمحو كل ما كتب « الفدائيون »
يوماً في شوارِعِها
هنا عمّانْ
لا عنوانْ
. . . .

هنا بَيْروتُ
أخبارٌ من الآتينَ والغادينَ
أنّ مجامعَ الاحبارِ قد حَرَمَتْهُ
والحرمانُ في عُرْفِ المجامعِ موصِلٌ
للنار ،
والزعّارِ
يَنْتَظِرونَ وقعَ خُطاهُ . . .
لكنَّ الفَتى المحرومَ يُفْلِتُ من
أصابِعهم
ويَسْرَحُ في بلاد اللهِ ،
يَنْهَلُ من مواجِعها
ويَرْوى من منابِعها . . .
. . . .
هنا وهناكَ
أيْنَ يكونُ يا مُدُن الهزيمةِ
والكريهةِ خبِّريني
. . . .
وراحت روحُه « تكبي »
فأرْخت كفُّه الدَفْتَرْ . . . .

- ٢ -

سلاماً يا أبا ناجي
سلاماً يا أبا ناجي
سلاماً يا أبا ناجي

- ٣ -

سلاماً أيُّها المشحونُ بالأَشْعارِ
والاخبارْ
سلاماً أيُّها المطحونُ في الأَحجارِ
والمسكونُ بالأشجارِ
والمعجونُ بالتُرْبَة
لماذا تَنْشُد الغُرْبة
ولم تَتعلَّم الأَسْفارَ
منذُ نعومةِ الأظفارْ !
. . . . . .
عَرَفْتُكَ لا ترى أَزْكى
مِن النَّسَماتِ في « الخربة »[٣]
ولا أنقى مِنَ الماءِ الـذي يَنْسابُ
من هَضَبات عين القوصِ
أو رَبَواتِ عين المَرجْ[٤]
ولا أشهى مِنَ العِنَبِ
الذي زرَّعتَ
والتينِ الذي رَعْرَعْتَ
والزيت الذي عصّرتَ
من زيتونك الدهريِّ
في جبّورْ . . .[٥]
ولا « أمرا » من العدساتِ
« والبَصَلات » والجرجيرِ
والعكّوبِ والزَعْتَرْ[٦]
ولا أحلى من « الشوباش »
حين يُلعلع « الموزر »[٧]
ولا أغلى من الصُحْبه . . .
عرفتكَ دائماً تَحْتَجْ
فكيفَ تُرى تُخلِّفُ روعةَ النوّارِ
في أيّارِ
وكيفَ تُرَى « تخلي » الدارْ ؟
وكيفَ تفارقُ البستانَ
والخلاّنَ
والأحزانَ
يا مُسْتودَعَ الأَحْزانْ
وكيفَ تُرى عَزَمْتَ سُرىً
على الإبحار في أرجوحةِ الغُرْبَهْ
وقطّعتَ الوشائجَ لم تَدَعْ مِنها
ولا شِرْيانْ
أيَحْمِلُ قلبُكَ السلوانْ
أتقبلُ روحُكَ الغُربه ؟

- ٤ -

سَرَحْنا اليومَ في جبّورْ
وكنّا أمسِ في « الخَلّة »
وقُلْنا فَلْتَكُنْ « طلّه »[٨]
على كنزٍ لنا مَهْجورْ
. . . . . .
عُروقٌ تَجْبُر المكسورْ
وأشواقٌ إلى الغَلّه
ولكن يا أبا سَلْمانَ
هاشت هُوشة العُلّيق
والقُنْدِيلْ[٩]
وراحَ تُرابُها في السيلْ
ويا خَوفي على رِزْق الـذراري
من هُجوم البُورْ . . .
ويا وَيْلي مِن القِلّه .

وربِّكَ يا أبا مَنْصورْ
إذا عِشْنا
يَميناً لَنْ تَرى يَوْماً مِن الذِلّه .

- ٥ -

غداً إنْ نوّر الحَنّونْ
وَحَمَّرتِ الشَقائقُ كلَّ ما يَعْرى مِن الوِدْيانْ
غداً إن غَرَّد الحسّونْ
على « التوتاتِ » و « التيناتِ » و « الجَوْزاتِ »
و« الخوخاتِ » في البستانْ
غداً إنْ أَزْهَرَ الزَيْتونْ
وأَغْفَتِ تِلْكُمُ الرَّبَواتِ تحتَ لحافِه الأَخْضَرْ
تُزيِّنُها أكاليلٌ مِن البلّورْ
. . . . . .
غداً إن أَثْمَرَ الزَيْتونْ
وأَعْلَنَ مِنْ عَلاليها
مُناديها
مَواعِيدَ الجَداد[١٠]
وراحَ حَاديها
يُردِّدُ تِلكُمُ الأَزْجالَ
فوقَ عَرائِشِ الزيْتونْ
فَهَلْ تأتي
وتلقاني على بَوّابة البيتِ
وتدعوني إلى فَرْطِ القلائد من أَعاليها . . ؟

- ٦ -

تُرى ان سَحّتِ الأمطارْ
وَهَبّت ريحُها الصَرْصَرْ
ودوّى رَعْدُها
واستأمنَ الغادونَ والآتونْ
الى النارِ التي تَزْأرْ
وحَدّثتَ العجائزُ عن لياليها
وأخرجتِ الخبايا مِن خَوابيها
فهل سَتُقدِّم « الحَطَباتِ » للكانونْ
وهل ستقصُّ للسمّارِ
ما جمّعتَ من قصصٍ ومن أخبارْ
لأنّ كواكِبَ السمّارْ
ستأتي بيظتنا ، وَتُسَائل الكانونَ
عن أحلى أَماسيها . . .

- ٧ -

تُرى هل تَجْمع الحنونْ ؟
ترى هل تقطف الزَعْتَرْ
تُرى هَلْ تكتبُ الأَخبارَ في الدَفْتَرْ
وتُشْعِل قَلْبَكَ المحزونْ
بقدحِ شرارة التذكارْ

- ٨ -

حنانَك يا أبا ناجي
حَنانَك شبّت الدَمْعه
ولم تُسْعِف كُهولتيَ التي
فولذتُ في النيرانْ
ولا أَغْنَت مواثيقي مَعَ الأشجانْ
حَنانك إن قَلْبي بالأسى مخزونْ
ويكفي أن تمرّ شرارةٌ عن مَخْزَن
البارود في جرحي
لكي يتفَجّر البركانْ
حنانَك يا أبا ناجي
فقد طعّمتني بالنارِ ،
مُنْذُ نُعومة الأَظْفَارْ
وقد علّمتني أن أَجْعلَ الحَسَراتِ
بُستاني
وأن أَتعشّقَ
الأَحْجارَ والأَشْجارَ والأخبارَ

والأشعارَ والتُرْبَه
وأنْ أتَجرّعَ الكُربه
وقلبي مُولَعٌ بالنارِ
مقدودٌ من الصوانِ
لا يَعْنو ولا يُقْهَرْ
ولكنَّ الهوى يَسْبي
ولا يَتَقبلُ الاعذارْ . . .

- ٩ -

عَتابا يا عَتابا يا عتاباي
نُعاتِبُ مَنْ إذا شِئنا عِتاباي
هَوانا ما عَفا عَنّا وتاباي
لننسى في منافينا الصِحابْ
حِصانُك يا أبا ناجي حَماناي
ولم يَهْجُرْ مع البلوى حِماناي
يميناً سوفَ نَحْميه حِماناي
ولو كان الفِدا أغلى الشبابْ

- ١٠ -

غداً إنْ نوَّرَ الحَنّونْ
سَنغدو يا أبا ناجي إلى الوِدْيانْ
ونَجْمَعُ مِنْ رَوائِعِها
هَدايا لِلصبايا الغِيدْ
. . . . . .
غداً إنْ فحفحَ الزَعْتَرْ
وشبَّ العِلْتُ والشومرْ
ونَادتنا الشِعابُ الغرُّ
سُحنا في مَغانيها
ورَوّينا الحَنايا مِنْ منابعها
وقُلْنا يا رِفاق العُمْر هَذا العيدْ

غَداً إنْ أثْمَرَ الزَيْتونْ
وناداانا مُناديها
هرعنا مِنْ منافيها
وأطبقنا بأيدينا على الأغْصانْ

غَداً سَنزوّج العِرسانْ
ونمشي بالمشاعِل في لَياليها
و« نَصْحَجُ » في شوارِعِها[11]
وَنَسْرَحُ في مَزَارِعِها
وَنَقْطِفُ ما تُقدّمه دَواليها

- ١١ -

سَلاماً أيُّها الاحجارُ
حينَ تُسَقْسِقُ النَبْعه
ويَجْري الماء في الوِديانْ
سلاماً أيُّها الأشجارُ
حينَ يُزَقْزِقُ الحَسّونْ
ويدعونا الى السلوانْ
وعَهْداً أيُّها الأحبابُ
والخلانُ أن نبقى مُحبّيها
وهذا عَهْدُنا دَمْعه
وعهداً أن تظل الدارَ والعنوانْ
وان نتعجل الرَجْعَه .

المراثي الثانية

- ١ -

وأذكرُ أنني وَدّعتُها يوماً ،
وخلّفتُ الأمانةَ في رحاب
الدارِ تزهرُ . . .
قلتُ للزيتونِ لا تبخلْ عليها
باخضرارِكَ . . .
وآسقِهَا مِنْ مائِك القُدُسيِّ
في كلِّ المواسمْ . . .
فَهْيَ أحْوَجُ ما تكونُ الى
الرِفادةِ
قلتُ للخروبةِ العذراءِ[12]
ها إنّي أشرّقُ
فآذكري عَهْدي
ولا تَدَعي الأمانةَ
في الخماسين اللعينةِ
تسأل الأحْبَابَ عن ناري
وتدعوني إلى رَدِّ المظالمِ
أنتِ شاهدتي
أطالِبُكِ الحضورَ إلى الشهادةِ
يومَ لا أقوى على دفع المزاعمِ
فاحرسي سري الذي خلّفتُ
في الاحجارِ
والاشجارِ
والعرزالِ والدار العتيقة والكرومْ . . .

- ٢ -

وأذكر أنني هوّمتُ في
مُدُنِ النَفيطِ
وَلَمْ يَكُنْ عِندي سِوى جُرحي
المفتّحِ
وآستعار الشوقِ
كانَ الجوعُ يُدْرِكُني على رَمْلِ الصفاةِ[13]
وكنتُ في الرملِ المُبرّحِ
أقرأ الرؤيا
وأسألُ كلَّ سانحةٍ وبارِحةٍ
عَنِ اليومِ الذي أمّلتُ
لكنَّ الرياحَ تهبُّ ، والسُّفنَ
التي حمّلتُ . . . تمضي في طريقٍ لا
تَقودُ إلى مَزارِكِ
آهِ كَمْ أمّلتُ
كَمْ حاولتُ
كَمْ سَاءَلْتُ
لكني اكتشفتُ بأنّ نجمي
لا يَسيرُ على طريقِ منايَ
بل يمضي إلى سِرِّ العواصمِ
قلتُ للرمل المُبرَّح
هاتِ حَدّثْني عَنِ الأشواقِ
وآفتحْ لي طريقَ هَوايَ
إنّي لم أكُنْ بَراً بوعدي
والأمانة ما تزالُ هناك
تُزْهِرُ في آنتظاري
غيرَ أنّ الرَمْلَ أرْشَدني
الى بئرِ الجماجمِ
فآندفعتُ على دروبِ هَوىً مُثيرٍ
وآختلطتُ مع الفجيعة والقطيعةِ
والدماءِ
وقلتُ : إنّي سوفْ أرجعُ ذاتَ يومٍ
بآنتصارِكِ
غيرَ أنّي لم أوفّقْ بعدُ . . .
ما زالتِ خُطايَ تغوص في رَمْلِ الجزيرةِ
ما زالت يَدايَ
تُحاولان عبورَ قيدٍ مِنْ شباكِ العَنكبوتِ
ولم يَزَلْ ما بَيْننا بَحْرٌ مِن الظُلُماتِ
لكنَّ الأمانةَ لم تَزَلْ نجمي
ولم تَزَلِ العزيمةُ مِنْ حجارِكِ

والوليمةُ مِنْ حناياي الجريحةِ
صدّقيني ما نسيتُكِ
حين آوتْني مقاصيرُ الوفادةِ
أو أضافتني دَواوين العَواصمِ
أنتِ شاهدتي
وقائدتي
وقلبي لا يريمُ ولوْ
بَعُدْنا عنْ مزارِك
أو غرقنا في رمالٍ لا تنمُّ عن السبيلِ
ولا تَبينُ على الدليلْ
وها أنا أمشي مع الحُلْم
المجنّحِ
لم أبعْ عهدي لأهل النفطِ
أو أنسى الأمانةَ
فهْيَ سرّي
بيْدَ أنّي حينَ أرْشدني كتاب
الرمل لِلْكِلَم الفصيحة
شعّ في قَلْبي هَوىً بكرٌ
وناداْتني رُبىً لم آكتَشِفْها بَعْدُ
شدّتني قُلوبٌ لم أُنادِمْها
فأيْقَظَني هَوىَ الزيتونِ
في الأرضِ الفسيحةِ . . .
وآغتراب النَخْل في أرْضِ النَخيلِ
فَصِحْتُ : إنَّ النصل مَرْبوطٌ على
عُنُقِ الذبيحةِ
ثم واصلتُ المسيرةَ
كانَ يَحْدوني هَوايَ الى الملاحمِ . . .
آهِ كَمْ عذّبتُ قلبي بانتظارِكِ
آهِ كَمْ أوغلتُ
لكنَّ الفتى المفتونَ
مشدودٌ إلى فَرَحِ الولادةِ
وَهْوَ لا يأتيكِ إلّا بانتصارِكِ
فافتحي الأبوابَ للجفنِ المُقرَّحِ
افتحي الأبوابَ للآتي
بغارِكِ
إفتحي الأبواب للآتي
بغاركِ
إفتحي الأبواب في قلبي
وميض الشوق يُزْهِرُ
وآحضني جُرْحي الذي فَتّحتُه
للرمل والماءِ المُملَّحِ
آهِ يا شوقي الى الزيتونِ
والدار العتيقة والبراري والكروم
إنّ هوايَ مشدودٌ
إلى المُدُنِ الكسيحةِ
والبراري والصحاري
والروابي والشوامخ
والتخومِ
فزوّديني من جرارِك
زوّديني بآخضرارِك
وآسقني من مَائِك القدسيِّ
حتى لا أضلَّ عن السبيلِ
ولا أكلّ عن السفارِ
لأنّ قلبي لا يقرّ ، إذا ظللتُ
بلا قرارِك .

- ٣ -

وأذكرُ أنني ودّعته يوماً
وكانت شمسُ نيسان الوضيئة قد
تخطّت قمة العاصور مُسْرِعةً[١٤]
وذهَّبت الحصائِر في زوايا بيتنا
الصاحي على خَبَر النوى
كانتْ يداه تُفتحانِ مغالِقَ الأحزانِ
كانت مقلتاه تشعشعانِ
وكان يَجْهَد ان يردّ الدمع حين هَوى
ويجهُد أن يتمتم بالنصيحةِ
ثمّ يُطْرِقُ ، فهو أدْرى
بالذي يعنيهِ ان يتبدّدَ الأحبابُ
في البيدِ الفسيحةِ . .
إنّ خالَته قَضَتْ ، وَوَحيدُها لم[١٥]
يأتِ من سَفَرٍ
ولم يَظْهَرْ على أثَرٍ
وقد عادَ الذينَ مَضَوا
ولم تجمعْ عليهِ روايةُ الرُكْبانِ
قيلَ قضى
وقيلَ مَضى
فَمَنْ سَيُعيد أوْحَدها الذي تَرَكَتْهُ
طِفلاً فآستوى شيخاً مع الأيّام في الغيبه
هِيَ الغيبهْ
وقاطرةُ القَطيعةِ لا تَردُّ مُسافراً
حتّى وَلَوْ ظلَّ الأحبةُ في آنتظارِ

. . . .

وأذكرُ أنّني لم أبْكِ حينَ
تركتُهُ ، وغضونُ جَبْهته
الحزينةِ كالصخور الصمّ في الرجمانِ[١٦]
لكنّي احترقتُ جوىً

. . . .

وأذكرُ أنّني ودّعتُه والدمع في
عينيه يدعوني إلى الأوْبه
ولكنّ النوى
جرّ السفينةَ في بحارٍ لا تحددُ
وَهْوَ لم يَصْبر على حُكم النوى
فنوى الركونَ الى رُكوب الريحِ . . .
يطلبُ راحةَ النفسِ التي آختزنت
بأحزانٍ كبار
وَها هُوَ يتركُ الدارَ الصغيرةَ
والهمومَ ويَهْجُر الأحزانْ
ويمضي دونما زادٍ إلى دارٍ بلا عنوانْ
ويَرْحلُ دونَ عنواني
تُرى هَلْ يَعْرف الشجَن
الذي خلاّه عندي ، حينَ خلاّني !

---

١ - «يكي» كبى يكي ، أي أصابه النعاس الشديد ، في عامية قريتنا .
٢ - بير زيت ، قرية ، تبعد عشرة كيلومترات شمال رام الله بفلسطين
٣ - الخربة . جبل عالٍ في بير زيت ، فيه آثار عصور مختلفة ، ويرى منه البحر الأبيض المتوسط
٤ - عين القوص ، وعين المرج نبعان في القرية ، كنا نشرب من مائهما
٥ - جَبور : منطقة مزروعة بالزيتون أساساً ، غرب القرية ، وشمالي طريق برهام (قرية مجاورة) .
٦ - « أمرا » أمرأ ، كما تلفظ في العامية .
٧ - الشوباش . نوع من الغناء حماسي . كالقول مثلاً .
بارودنا من مصر جبناه يا واو
ملفوف لف السيجارة الخ . . .
والموزر ، أي البنادق
٨ - الخلة : منطقة مزروعةزيتوناً، في الغرب الجنوبي من القرية قديماً ، وقبل أن تتسع جنوباً ، « والطلة » الزيارة السريعة .
٩ - القنديل : نباتات شائكة ، محرفة عن القندول .
١٠ - الجداد : قطاف الزيتون ، وفي اللغة قطاف النخل .
١١ - نصحج : نوع من الغناء يردده الرجال ، وهم سائرون عادة
١٢ - الخروبة : شجرة قديمة كبيرة على مقربة من بيتنا
١٣ - رمل الصفاة : الصفاة ساحة في مدينة الكويت .
١٤ - العاصور : جبل ارتفاعه ١٠١٧ متراً شرقي قريتنا
١٥ - كان لخالته وزوج عمه طفل من أترابه ، ضاع في الحرب العالمية الأولى ، وقد نشأنا ونحن نسمع قصة ضياعه وعودته .
١٦ - الرجمان : أو رجوم الرجمان : منطقة صخرية ، تقع الى الشمال الغربي من القرية .